الفلسفة الإسلامية بين الماضي والحاضر

د/أبو عمران الشيخ*

إنّ الفلسفة الإسلامية جزء لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية ويمكن أن نتسائل ما هو دورها في تدعيم الإسلام ونشره؟ وما هي المسائل الأساسية التي أضافتها إلى الفلسفة العامة من أجل البرهنة على قوة الإسلام وصلاحياته؟ وهل قامت بتصحيح بعض المفاهيم؟ وهل تصدت لبعض الآراء والنظريات الدخيلة لتميز بينها وبين الأصالة الإسلامية؟ سنحاول في هذا البحث أن نجيب عن هذه الأسئلة بشيء من الاختصار والدقة بقدر الإمكان إذ المقام لا يسمح بالتوسع والتفصيل، سنقتصر على جوانب ثلاثة تبدو لنا مهمة جدا وهي صلة الفلسفة بالدين وبتصحيح بعض المفاهيم والموقف من تحديات العصر.

---

*. رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

1. صلة الفلسفة بالشريعة

قد تأثرت الفلسفة الإسلامية إلى حد بعيد بالفلسفة اليونانية واستفادت منها كثيرا إلاّ أنها تميزت عنها في مسائل خاصة وذلك بحكم الخلاف الموجود بين التراث اليوناني والمبادئ الإسلامية. وبذل فلاسفة الإسلام مجهودا كبيرا لإثبات الصلة بين الفلسفة والشريعة وهذا الموضوع كان يقتضيه ارتباطهم بالدين الإسلامي الحنيف، وظهر هذا المجهود عند كل من الكندي والفارابي وابن سينا وتبلور عند ابن رشد في كتابه : "**فصل المقال لما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**"[1]. حصر الفيلسوف المواقف التي اتخذها المفكرون والفلاسفة المسلمون من هذه المسألة في ثلاثة فيئات : "وتطرق قوم إلى ثلب الحكمة وقوم إلى ثلب الشريعة وقوم إلى الجمع بينهما"[2]. تكوّن الفريق الأول من رجال الشريعة والفقه الذين رفضوا الصلة بين الفلسفة والشريعة الإسلامية بل رأوا أنّ الشريعة تعارض الفلسفة، من أشهر أصحاب هذا الرأي الإمام الغزالي[3]. تكوّن الفريق الثاني من بعض الفلاسفة الذين انتصروا للفلسفة وحدها و لم يجدوا أية علاقة بينها وبين الشريعة. أما الفريق الثالث وهو الذي ينتمي إليه ابن رشد فتكوّن من معظم الفلاسفة المسلمين الذين أرادوا التوفيق بين الفلسفة والدين.

---

1. راجع ابن رشد فصل المقال طبعة الجزائر تاريخ 1977 وطبعة 1982.
2. ابن رشد نفس المصدر، ص. 15.
3. راجع الغزالي تهافت الفلاسفة.

يرى ابن رشد أنّ الشريعة أوجبت النظر بالعقل وهذا ما قصدته الفلسفة أيضا ؛ ولا يمكن أن نرفض الفلسفة بدعوى أنها ظهرت عند القدماء قبل الإسلام[1] ؛ والهدف واحد في الشريعة والفلسفة وهو البحث عن الحقيقة[2]، وإن تميزت كل واحدة منهما بموضوعاتها وطرقها الخاصة.

قال ابن رشد : "إنّ الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة... مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة..."[3]. وإذا أساء بعض الناس النظر في كتب الفلسفة، فهذا لا يبرر ما ذهب إليه بعض المتكلمين والفقهاء بأنه يجب حظر الفلسفة، فالذنب ذنب المخطئين لا ذنب الفلسفة[4]، ويعود هذا الخلاف بين المتكلمين والفلاسفة إلى اختلاف الطرق بينهم إذ يعتمد الفلاسفة على البرهان العقلي، في حين أنّ المتكلمين يعتمدون على البرهان الجدلي". وختم ابن رشد كلامه مؤكدا أنّ الفلسفة تدعم الشريعة وتساندها. وقد أثر موقف ابن رشد هذا في الكثير من المفكرين الإسلاميين مثل ابن خلدون ومحمد عبده ومحمد إقبال وغيرهم. ولهذا يعتبر كتاب "**فصل المقال**" من أهم مصادر الفلسفة الإسلامية.

---

1. ابن رشد فصل المقال، ص. 28.
2. ابن رشد نفس المصدر، ص. 34.
3 . ابن رشد نفس المصدر، ص. 46.
4. ابن رشد نفس المصدر، ص. 32.

واعتنى فلاسفة الإسلام أيضا بإثبات النبوة ردا على بعض المفكرين الذين حاولوا إنكارها، فتصدوا لهم بالرد المفصّل كلّ من الفارابي وأبو حاتم الرازي وجمال الدين الأفغاني وغيرهم[1]. ومن ناحية أخرى اعتنى بعض المتكلمين والفلاسفة نقد آراء عدد من الخصوم مثل المانوية والبوذية، والدهرية وما إلى ذلك، واشتهر بعض المفكرين بمؤلفات قيمة في هذا المجال يمكن الرجوع إليها[2].

تجمدت هذه الآراء والنظريات في عهد الركود الذي وقعت فيه ثقافتنا بعد ابن خلدون، ولم يظهر أي اجتهاد يذكر في مجال الفلسفة على وجه الخصوص إلاّ في عصر النهضة الحديثة بزعامة جمال الدين الأفغاني، فانطلقت الفلسفة الإسلامية من جديد، وصدرت فيها دراسات كثيرة مثل رسالة التوحيد لمحمد عبده، وتجديد الفكر الديني لمحمد إقبال، وتمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرزاق وغيرها من المؤلفات المفيدة. وهكذا حاولت هذه المدرسة الحديثة إحياء الفلسفة الإسلامية التي تأثرت إلى حد بعيد بالفلسفة الغربية، فأخذت منها بعض المفاهيم والمصطلحات بحذر وتبصر وطورتها، مع المحافظة على أصالتها الإسلامية.

---

1 . راجع د ابراهيم مذكور في الفلسفة الاسلامية الفصل الثالث.

2. راجع كتب الفرق الاسلامية مثل مقالات الاسلاميين للأشعري "والملل والنحل" للشهرستان.

2. تصحيح بعض المفاهيم

قد اهتمت الفلسفة الإسلامية بتصحيح بعض المفاهيم التي وصلتنا من الحضارة الغربية الحديثة موضحة موقف الإسلام منها، وتتلخص هذه المفاهيم في مجموعة من النظريات والمصطلحات التي وردت من الحضارة الأوروبية بمدلولات خاصة وقام مفكرو الإسلام بتحليلها ومقارنتها بالمفاهيم الإسلامية المماثلة أو القريبة منها-نذكر من هذه المفاهيم على سبيل المثال التقدم والحرية والديمقراطية والتسامح والتطور والعلم.

بلغ **التقدم** الصناعي حقا في أوربا مستوى عاليا بفضل الاكتشافات العلمية الحديثة وازدهرت الحياة الاقتصادية وتحسنت وسائل المعيشة وأصبح هذا التقدم مقياسا من مقاييس الحضارة الرفيعة إلاّ أنه يمتاز أساسا بطابع مادي ولا يعير الاهتمام المطلوب للقيم الأخلاقية والروحية، فسيطرت المادية على المجتمعات الغربية وتسربت إلى المجتمعات الأخرى، وتصحيح هذا المفهوم يقتضي أن يعتمد التقدم على الأخلاق والدين حتى يقع التوازن بين الماديات والروحيات، وهذا ما يضمن للحضارة العصرية طابعها الإنساني، فتنشر فيها الأخوة بين الناس والتضامن والعدل والتربية وتتفوق فيها المصلحة العامة على مصلحة الفرد مع ضمان الحقوق المشروعة لكل مواطن[1].

1. راجع محمد المبارك المفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية. ص. 42.

ووصلنا مفهوم **الحرية** بمعانيه المتضاربة، فهي تعني غالبا حرية الفرد فقط ومسؤولياته في تصرفاته، إلى أن أصبحت هذه الحرية هي كل شيء في مذهب الفيلسوف سارتر. ويلاحظ أنّ هذا المفهوم يختلف من مجتمع إلى مجتمع، ومن نظام حكم إلى آخر، وتتدخل فيه الدولة والمجموعات الاقتصادية والسياسية وغيرها. والإسلام لا يقر الحرية الفردية على حساب الجماعة وإنما يضمن التوازن بين حرية الإنسان ومصلحة الأمة.

ومفهوم **الديمقراطية** هو الآخر أصبح شائعا باعتباره نظاما شاملا له فلسفته الخاصة، فيدل على وجود مؤسسات توفر للمواطنين المشاركة في تسيير الدولة وسياستها ولكنها في غالب الأحيان لا تتعدى الطابع الشكلي فتؤثر فيها الأحزاب والمجموعات والصحافة، ولا تسمح للمواطنين بمشاركة فعالة في شؤون بلادهم، ولهذا نفضل مصطلح **الشورى** الإسلامية التي تعتبر أساس نظام الحكم وتضمن لأفراد الأمة الإدلاء بالرأي والتأثير على الدولة. وقد تبلور مفهوم الشورى الصحيح في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين[1]، وتتجسد الشورى اليوم في المجالس النيابية وفي الاعتماد على اجتهاد العلماء والمتخصصين والتوعية التي تقوم بها الصحافة والوسائل السمعية البصرية.

و**التسامح** بدوره يعني احترام رأي الآخرين ومعتقداتهم ومميزاتهم ولكن هذا التسامح يزامنه التعصب في بعض الأنظمة الديمقراطية الأوروبية. فإذا

1. راجع محمد اقبال تجديد الفكر الديني، ص. 178.

وفرت هذا التسامح لمواطنيها، فهي لا توفره للأجانب. فيكون التعصب فيها للدين أو للثقافة أو لاعتبارات أخرى ؛ والتسامح الحقيقي يعني احترام جميع الناس بدون تمييز بين هذا العنصر أو ذاك أو هذا الشعب أو ذاك أو هذه الثقافة أو تلك.

وأما مفهوم **التطور** فقد ظهر في الداروينية الحديثة وكان مرتبطا في أول الأمر بعلم الأحياء، فتعداه شيئا فشيئا وانتقل إلى مجالات أخرى مثل الأخلاق والدين وصار يعني التغيير المستمر نحو الأحسن والأصلح. وهذا غير صحيح، إن التطور ليس دائما نحو الأفضل والأحسن فقد يكون من الأحسن إلى الأسوأ، وليس من الضروري أن يكون كل تطور جديد أحسن من التطور الذي سبقه، وليس كل جديد حسنا وكل ماض سيئا. وإنما توجد قيم أخلاقية وحضارية لا تتغير في جوهرها[1]، وتحترم في كل زمان ومكان كما يتبين ذلك في القرآن الكريم والتطور هو أيضا نتيجة الاجتهاد كما جاء في حديث الصحابي معاذ بن جبل مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما بعثه إلى اليمن[2].

ومفهوم **العلم** كذلك وقعت فيه بعض الالتباسات، إنه مرتبط أولا بالمنهج التجريبي وينطبق على العلوم الطبيعية بالدرجة الأولى إلاّ أنه محدود ومؤقت وقابل إلى إعادة النظر باستمرار وهو يرمي إلى وضع قوانين

1. محمد المبارك الفكر الاسلامي الحديث، ص. 186-188.

2. محمد اقبال تجديد الفكر، ص. 170.

طبيعية خاضعة للحتمية والسببية. ولا يمكن للعلم بهذا المفهوم أن يتجاوز حدوده الطبيعية فلا ينطبق مثلا على العلوم الإنسانية أو على الدين كما يدعي ذلك بعض الاقتصاديين والاجتماعيين.

3. الفلسفة الإسلامية وتحديات العصر

ويؤدي هذا الخلاف في المفاهيم والمصطلحات بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية إلى مجابهات أيديولوجية تبرز في تيارات فلسفية وسياسية معينة نذكر منها العلمانية والإلحاد والتخطيط والتكنولوجيا. ظهرت هذه الآراء والنظريات في الحضارة الأوروبية الحديثة في ظروف تاريخية واجتماعية معينة تختلف اختلافا كليا عن غيرها من الحضارات. ثارت أوروبا على الدين والكنيسة في القرنين الـ 18 والـ 19 فوقع الفصل بين الدين والدولة بعد صراع مرير بين الكنيسة من ناحية ورجال الفكر والعلم من ناحية أخرى[1]، ثم استقرت اللائكية أو العلمانية في النظام السياسي فأصبحت الدولة لا صلة لها بالدين. ولم يوجد هذا الصراع في الحضارة الإسلامية ومن هنا لا يمكن فيها الفصل الذي حصل في الحضارة الأوروبية. إن الإسلام لا يقبل هذه الفكرة لأنه دين ودولة. وهو يرى من واجب الدولة أن تحقق مبادئ الدين في المجتمع وأن تجسد فعلا المساواة والعدل والتضامن بين أفراد الأمة الإسلامية. والإنسان في القرآن هو خليفة الله في الأرض ولذلك يتعاون الدين والسياسة

1. محمد البهي الفكر الاسلامي الحديث. ص. 293-296.

والأخلاق[1] فالعلمانية إذن غريبة عن الحضارة الإسلامية و لم تظهر إلاّ في تركيا الحديثة بتأثير من أوروبا كما هو معروف. ويبدو أنّ الظروف بدأت تتغير اليوم في تركيا نفسها وأخذت العلمانية تضعف فيها حسب ما أطلعنا عليه مؤخرا بعض المقالات في الصحافة الدولية.

إنّ الإسلام يتميز **بالتوازن** بين الجانب المادي والجانب الروحي في حياة الإنسان ولا يطغى أحدهما على الآخر إلاّ في حالات خاصة تعتبر انحرافات عن الدين ويقومها علماء الإسلام. أما الإلحاد المعاصر في الحضارة الغربية فإنه يرفض الدين بدعوى أنه يعارض العلم والتقدم ولكن تاريخ الإنسانية يبين أنّ الدين رافق الإنسان من قديم العصور.

ولا يمكن أن نعتبر الدين مجرد وهم ! ويلاحظ أنّ الإلحاد المعاصر نفسه تحول إلى فلسفة واعتقاد ويجتمع أنصاره أحيانا في جمعيات ومؤسسات لا تختلف في نظامها عن المؤسسات الدينية، ويتغلب فيها التعصب على التسامح والأغراض الذاتية على الموضوعية العلمية. وقد يؤدي الإلحاد إلى تدهور الأخلاق وتفشي الإباحية، وإذا كان لوجود الإلحاد ما يبرره في الحضارة الغربية فإنه ليس هناك ما يساعد على انتشاره في الحضارة الإسلامية وإن ظهرت فيها من حين لآخر بعض الشخصيات الملحدة التي لم يكن لها نفوذ يذكر.

---

1. محمد اقبال تجديد افكر ص. 170.

والسبب في ذلك أنّ الإسلام يجمع بين الدين والعلم ولا يرى بينهما تناقضا لأن التجربة الدينية ليست من نوع التجربة العلمية. إنّ الدين يتجاوز الطبيعة ويشمل حياة المؤمن كلها، أما العلم فلا يعتني إلاّ بجزء خاص من الطبيعة. فكلاهما ضروري للحياة، العلم لتحسين الحياة المادية والدين لتنظيم الحياة الفردية والمعاملات الاجتماعية.

وتواجه الحضارة الإسلامية ضرورة **التخطيط والتكنولوجيا**. وتفوقت عليها فعلا أوروبا والدول المصنّعة في هذا المجال رغم المحاولات العديدة التي قامت بها بعض الدول الإسلامية للقضاء على التخلف الاقتصادي والتكنولوجي. إننا نعاني من عدم التوازن بين الشمال والجنوب في الاقتصاد وفي الزراعة وفي تكوين الخبراء والفنيين. فنستورد الآلات والتجهيزات وبعض المواد الغذائية ونستعين بالمتعاونين الفنيين في عدة قطاعات ولا يتم استقلالنا إلاّ باستقلالنا الاقتصادي والتكنولوجي. وعلينا أن نخطط لذلك تخطيطا محكما يضمن لنا التحرر الكامل من النفوذ الأجنبي والاستعمار الجديد.

وفي **الختام** يبدو لنا أنّ هذا الجهد ممكن إذا تمسكنا بالدين الحنيف من ناحية والعلم الصحيح من ناحية أخرى. ولا شك أنّ قوة الإيمان والتربية السليمة والعمل المنظم كل ذلك يساعد على التقدم الصحيح وإثبات ذاتيتنا بخصائصها المميزة. والعلوم الإنسانية قد تساعدنا على ذلك إذا وضعناها في حدودها المشروعة وجعلناها تعمل على نشر

التوعية الإسلامية وخدمة الأمة الإسلامية لنتخلص من التبعية ونفرض وجودنا. ولا شك أنّ الفلسفة الإسلامية تستطيع أن تساهم في هذا المشروع إلى جانب العلوم الإسلامية الأخرى. وهذه رسالتها في المدارس والجامعات ومختلف المؤسسات الثقافية والعلمية. وذلك لا يعني أنه يجب الانغلاق على أنفسنا وإهمال الثقافات الأخرى، بل نرى من واجبنا التعرف على هذه الثقافات وعلى أهم تياراتها لنستعين بها إذا ناسبتنا ونرفض منها ما يتناقض مع حضارتنا ومصلحة أمتنا. وعلى هذا الأساس نتعامل مع الحضارة الغربية الحديثة بناء على احترام القيم الإنسانية والمصالح المشتركة بين الدول. والله ولي التوفيق.

المراجع

1. أبو حامد الغزالي، "تهافت الفلاسفة"، القاهرة، 1957.
2. أبو الوليد بن رشد، "فصل المقال"، الجزائر، 1977.
3. أبو عمران الشيخ، "هل يؤدي العلم إلى الإلحاد ؟"، ملتقى الفكر الإسلامي، الجزائر 1969.
4. إبراهيم مدكور، "في الفلسفة الإسلامية"، القاهرة، 1947
5. جمال الدين الأفغاني، "الرد على الدهريين"، القاهرة، 1968.

6. الشيخ أنتاديوب، "حضارة أم همجية ؟" (باللغة الفرنسية)، باريس 1981.

7. علي سامي النشار، "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"، القاهرة، 1962-1966.

8. مالك بن نبي، "الظاهرة القرآنية"، الجزائر 1948.

9. محمد إقبال، "تجديد الفكر الديني في الإسلام"، القاهرة، 1955.

10. محمد البهي، "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي"، القاهرة، 1959.

11. محمد المبارك، "الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية"، بيروت، 1968.

12. محمد عمارة، "جمال الدين الأفغاني المفتري عليه"، القاهرة، 1983.

13. محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، القاهرة"، 1973.

14. مصطفى عبد الرزاق، "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية"، القاهرة، 1944.

* مجلة "الثقافة"، العدد 95، محرم-صفر 1407هـ/سبتمبر-أكتوبر 1986م.